مفهوم الارض في التراث الفلسطيني المعاصر
الشعر أنموذجاً

أ.م.د. لؤي شهاب محمود

مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية – جامعة بغداد

الخلاصة

هنالك علاقة جدلية ورابطة وثيقة بين الانسان الفلسطيني والارض تصل الى درجة التقديس فهي اي الارض رمز البقاء والوجود والصمود والوحدة الفلسطينية ومنبع الشوق والحنين للمشردين والمغتربين في الشتات والمنافي القسرية وهي تكتسب ابعادا كثيرة في الادب العربي لمواجهة مشاريع الاقتلاع والترحيل والتي حملها محمود درويش عنونا ليتحدث بها ويحكي عنها ويتغنى بها عن الارض شوقا للحرية وكسرا لقيود الاحتلال.

المقدمة :

هنالك علاقة جدلية ، ورباط وثيق بين الانسان الفلسطيني والارض تصل الى درجة العبادة والتقديس، والالتصاق بكل حبة تُراب في فلسطين الحبيبة المجبولة بعرقِ الفلاحين والكادحين ودمائهم ودموعهم ، والارض هي: رمز للبقاءِ والوجود والصمود والوحدة الفلسطينية ، ومنبع الشوق والحنين اللاهب للمُشردين والمغتربين في الشتات والمنافي القسرية ، حيث تُشكل الارض إحدى الملامح والصور الرائعة ، شديدة الحضور في دفترِ الادب والعشق الفلسطينيين ، ويكفي – أي الارض – إنّها عكست وجسدت وحدة وتلاحم جماهيرنا العربية وشعبنا الفلسطيني بأروع وأبهى صورة في (يوم الارض) الخالد في العام ١٩٧٦، عندما انتفضت هذه الجماهير مع قواها النضالية الوطنية ضد غول النهب والمصادرة ، فسقط الجرحى والشهداء ، وهم يرسمون بدمائهم خريطة الارض ، ويكتبون تاريخها .

لقد عالج كُتابنا وشعراؤنا في الداخلِ الفلسطيني قضية (الارض) في نصوصهم الادبية والشعرية والنثرية ، وعبروا بصدق عن الشعور والاحساس الوطني ، وحذروا من السماسرة ، ونبهوا الى المشاريع والمخططات المرسومة التي تستهدف مصادرة الارض الفلسطينية وتهويدها ، فصاغوا ونسجوا قصص وقصائد الحب والعشق والمقاومة الداعية الى التمسكِ والانغراس في الارض ، والا نزراع فيها ، والدفاع عنها، والتصدي لعمليات المصادرة العلنية ، والاغتصاب للاراضي الفلسطينية باسمِ (القانون والديمقراطية).

كل ما تقدم كان مدعاة للبحث في هكذا موضوع ؛ لأنّ موضوعة (الارض) في ادبنا الفلسطيني عميقة الجذور ، ومرتبطة بالأصالةِ الوطنية الحقيقية ، وإنتصاراً للقيمِ الابداعية الإنسانية ، والمثل العظيمة السامية .

لذلك اقتضت طبيعة البحث تقسيمه على النحو الآتي :

- المقدمة .
- المحور الاول : مفهوم (الارض) في الشعر العربي الحديث.
- المحور الثاني : مفهوم (الارض) عند مجنون التُراب .
- المحور الثالث : مفهوم (الارض) في الواقع الفلسطيني المعاصر .
- الخاتمة .
- الهوامش .

- المحور الاول :

(مفهوم (الارض) في الشعرِ العربي الحديث) :

للأرضِ عدة مفاهيم ، فهي ليست تُراباً وسُكاناً ومناخاً واشجاراً ، والارض ليست تاريخاً فقط ، وليس جغرافياً فقط : (الارض) ذات مفهوم رمزي ، وذات مفهوم حركي ، وذات مفهوم إقتصادي ، وكذلك سياسي ، والارض عن طريقِ ما تقدم كانت عنصراً بارزاً في الشعر العربي عامة ، والشعر العربي الفلسطيني خاصة .

ولنبدأ بمفهومِ (الارض) في الشعرِ العربي الحديث ، إذ ظهر هذا المفهوم ، وبرز بروزاً واضحاً في موجاتٍ شعرية مُتلاحقة ، أهمها : (موجة جماعة البعث ، وموجة جماعة الديوان ، وابولو ، والشعر المهجري ، وكذلك موجة الشعر الجديد) ، وقبل هذا وذاك تناول الشعر العربي (الارض) ، وكان تناولهُ لها عن طريق إطارات ثلاثة هي : (وصفي / جمالي، وغزلي / عاطفي ، والحنين الى الاوطان) [١] .

وبعد ذلك بدأ مفهوم (الارض) يبرز اكثر فأكثر في تيارات وموجات الشعر العربي الحديث : فقد ظهر في شعرِ جماعة (البعث) ، والممثلين بـــ : (البارودي ، وحافظ ، وشوقي) ، وهذه الجماعة كانت تنظر الى الارض عن طريق إطارين :

- الإطار الاول : كوعاءِ للجمالِ والُمتعة ،

- الإطار الآخر : كذكرى للسعادةِ المُنقضية ، والنعيم الزائل[٢] .

وعندما جاءت جماعة (الديوان) ، والممثلة بـ (العقاد ، والمازني ، وعبد الرحمن شكري) تراجع مفهوم (الارض) لديهم تراجعاً كبيراً ؛ وذلك عن طريق : إبتعادهم عن المفهوم القومي للارض ، وخاصة بالنسبةِ (للعقادِ)، ولذا فلم تكن للارضِ أية قيمة مميزة لديهم ، او في شعرهم ، وعلى ما تقدم لا تُعدّ جماعة (الديوان) قد ادخلوا على مفهومِ (الارض) تطوراً كبيراً [٣] .

ثم جاءت جماعة (ابولو) في الثلاثينات ممثلة بعدةِ شعراء ، ابرزهم : (زكي ابو شادي ، وعلي محمود طه ، وغيرهم) ، والذين اعطوا مفهوماً للأرضِ قائماً على اساسِ : إنّها المكان الجامد المحايد ، في حين : إنّ الاوضاع التي كانوا ومروا بها آنذاك كانت اوضاع متحركة وفاعلة ، مما يُظهر شعوراً وطنياً ، وارتباطاً بالارضِ او شوقاً إليها عند فقدانها ، ليس إلاّ تقوقع أنية الشاعر على ذكرياتِ ماضية السعيد على هذه الارض[٤] .

في حين إتخذ مفهوم (الارض) لدى (شعراء المهجر) مفهوماً مُختلفاً عما كان موجوداً في الموجات الماضية ، وذلك بسبب الغربة المكانية الدائمة بين الوطن وابنائه في المهجر الامريكي على وجه الخصوص، فالارض في الشعر المهجري إتخذت صورة لمحطة نهائية للسفرِ كما في شعر (الياس فرحات) ، وفي شعر (رياض المعلوف) غاية الأماني، وصورة من عالم مثالي تتحقق فيه سعادة الشاعر [٥] .

اما المفاهيم الجديدة التي اضافها الادب المهجري الى الارض، فهي كونها تمثل بؤرة الحنين الرومانسي ، والفردوس الذي تركه الشاعر، والذي يُريد له أن يظل سليماً حين يعود إليه [٦].

في حين برزت مجموعة او موجة جديدة ادخلت مفاهيم مختلفة على موضوعة (الارض) ، فـ(البياتي) – مثلاً – كانت (الارض) بالنسبةِ له بمثابة الجدلية بين الجمود والتحرك ، الموت والولادة ، وهي في الوقت نفسه " (الأُم الحالمة)، وهي (المُتجددة مع الزمن) ، وهي : (مدينة المستقبل البديلة عن مآسي الحاضر) ، إذن هي : (تطور موضوعي لحاضر مُتحرك) [٧] .

اما (السياب) . فقد عَدّ (الارض) ماضي الانسان الذي لا يمكن ان يعيش بدونه ، فهي بعض منه ، وهي تجسيد للماضي وامتداد له ، وهي التراث الذي يسري في عروق الشاعر ، ويهبه الحياة، ثم هي الروح والولادة كما كانت عند البياتي [٨] .

إلاّ أنّ (عبد المعطي حجازي) نظر الى (الارض) عن طريق بُعد قومي ، وكعنصر يتفاعل مع احداث الواقع ،و يغص بالنواحِ لانتصارِ الظلم ، فيتحول الموت مع الارض في شعر حجازي من قرين للفناءِ والتفسخ الى مُرادف للخصبِ والحياة [٩] .

ونحن نقول : إنّ الدفق الحقيقي لمعنى ومفهوم (الارض) قد ظهر في شعر شعراء المدرسة الجديدة، الذين ربطوا (الارض) بمعاناتهم . لقد أصبحت (الارض) قضية كبيرة من قضايا الشعر العربي المعاصر ؛ لأنّها ارتبطت أشد الارتباط بالصراع والنضال ، واصبح الوطن لدى شعراء مُعينيين كـ(محمود درويش) هو كل الشعر ، بِعدّهِ (مجنون التُراب) ، فإسمعهُ يقول :

ليس المكان مساحة فحسب
إنه حالة نفسية
ولا الشجر شجر
إنّه اضلاع الطفولة [١٠] .

• المحور الثاني :

(مفهوم الارض عند مجنون [*] التُراب) :

كان (التُراب / الارض) لدى محمود درويش هو (الشعر) ، ثم أصبح مفهوماً يتسم بدعوة الالتحام الكُلي بين الانسان وبين الارض ، بين قضايا الانسان وبين الارض ، وبأنّ إكتشاف الارض يعني : اكتشاف الانسان لذاتهِ ، وهو يقودنا ، من ثم الى مساواة الانسان كقيمة في الارض[١١] ، فإسمعه يقول :

لترتفع الآن أذرعه اللاجئين
رياحاً ..... رياحاً
لتنتشر الآن اسماؤهم
جراحاً ..... جراحاً
لتنفجر الآن آجسادهم
صباحاً ..... صباحاً

لتكتشف الارض عنوانها

ونكتشف الارض فينا (١٢) .

إنّنا مدعون لاكتشافِ الارض في كل ما يُحيط بنا ، واعطاء الارض معنى كونياً واسعاً ، ومعنى فلسفياً عميقاً . لقد تحولت دعوة " أكتشف فيك الانسان ايها الانسان " إلى " اكتشف فيك الارض أيها الانسان " ، حيث أصبح اكتشاف الارض من اكتشاف الانسان لنفسه ، وهذا وجه آخر من اوجه النضال الإنساني من أجل بقاء الارض نظيفة.

ثم تطور مفهوم (التُراب /الارض) ليُشكل مفهوم الطريق الوحيد للعودة ، العودة المنتصرة او المنكسرة ، او عودة صورة القادة المهزومين ، عندما يخاطبهم درويش(*) قائلاً :

- **من أنت ؟**
- **جندي يعود من التُراب**
- **بهزيمة أُخرى وصورة قائد** (١٣) .

فـ(من أنت ؟) سؤال الفلسفة منذ قديم الزمان ، يُجيب عنهُ درويش اجابة عربية / فلسطينية مكرسة من أجل (التراب / الارض) ،اجابة الشعراء العرب في المرحلة نفسها ، والتي كانت اجابات مختلفة، فمنهم من أجاب :

- انا بحار قادم من سواحل المانجو والبخور

ومنهم من أجاب :

- انا الحالم القادم من بحارِ العشق والانتظار

ومنهم من أجاب :

- انا القادم من المجهول ، الذاهب الى المجهول .

إلاّ أن (محمود درويش) لم يكن قُبالة عينيه غير اللون(الكاكي) ، لون الانسان ، ولون (التراب / الارض) في الوقت نفسه ، ولم تكن قُبالته غير بوابات : (التراب ، والارض ، والوطن) (١٤) .

لقد تطور مفهوم (الارض) عند محمود درويش ، ليمر في مراحل أضافت وأخذت، وهذه المراحل، هي :

* في العام ١٩٧٣ : تطور مفهوم (التراب/ الارض) عن طريق ديوانه : (محاولة رقم (٧)) ، ففي هذه المرحلة دخل (التراب / الارض) مفهوم (الانوثة والنسوية) في شعر درويش من حيث هو كائن يعشق ويكره ، يُخلص ويحب ، فأسمعهُ يقول :

واعرف : انّ النساء تخون جميع المبين إلاَّ المرايا

واعرف : انّ التُراب يخون جميع المحبين إلاَّ البقايا [١٥] .

ثم جاء ديوان (تلك صورتها وهذا انتحار العاشق في العام ١٩٧٥)، وهذا الديوان عبارة عن (قصيدة / قصائد) طوال للارض الفلسطينية ، لذلك فقد دخل (التراب/ الارض) طوراً جديداً من اطوارهِ الشعرية ، بل ان هذا الديوان عبارة عن : فيلم وثائقي تام عن التراب والارض الفلسطينية ، فهذه (صورتها) تعني : (صورة فلسطين) ، وانتحار العاشق هي: صورة للعربي العاشق الفلسطيني الذي لا يمكن ان يُقدم غير الانتحار من اجلها ، وهو يرميها بالاحلام والقرنفل ، ويحاول الموت من اجلها ، فلا يفوز بالموتِ إمعاناً في دراما العشق ، وتعيقاً لها ، وعندما يموت العاشق يكون هنالك فرح ومرح تُرابي مُعد له ، و(الفرح التُرابي) تعبير جديد يُدخله درويش في قاموسه الجديد [١٦] . إنّها جملة مناسبات اجتماعية عادية !

وفي مرحلة ديوان (اعراس) في العام ١٩٧٧ ، او ما تُسمى بمرحلة (التراب / الروح) ، والتي يتحول فيها (التراب / الارض) الى امتداد روحي ، والمتمثلة في قصيدة (الارض) بأكملها ، ففي قصيدة (الارض) نلحظ : إنّ هناك رغبة من الشاعر بالتوحدِ مع الارض وصولاً الى توحد اعمق مع القوى الباعثة للخصب ، والحاملة لبذور اللقاح ، فتصبح الارض وكأنّها حالة نفسية وذهنية تتلبس الشاعر، ويكون لها امتدادت ؛ لانّها في المطلق[١٧] . فأسمعهُ يقول :

اسمي التراب امتداداً لروحي

اسمي يدي رصيف الجروح

اسمي الحصى أجنحة

اسمي العصافير لوزاً وتين

اسمي ضلوعي شجر

واستل من تينة الصدر غُصناً

وأقذفهُ كالحجر

وأنسف دبابة الفاتحين [١٨] .

ثم يأتي درويش بمعنى جديد من معاني (التُراب / الارض) ، حين يقول :

وفي شهر آذار يمشي التراب دماً طازجاً في الظهيرة [١٩]

معنى فيه نضال وتجدي ، فبعدما تحول التُراب الى انسان ، اختصر التراب الزمن ، فلم ينتظر حتى يموت الانسان لكي يعود الى التُراب ، بل ذهب التراب الى الانسان ليتحد (به / ومعه) ، ويصبح دماً طازجاً يمشي في الظهيرة بحثاً عن مهدرة ، فـ(الفعل) / يمشي دلالة على الفعل والحياة ، والبحث عن المفقود ، دلالة على وجود هدف للوصول ، ودلالة على الصحة والعافية والقوة ، بل هو عنوان للبحث عن الحقيقة ، عن شيء مفقود . لكنه خالد بالنضال ، لان (التُراب / الارض) امسى بديلاً قوياً لا يُقهر ، و(الظهيرة) هي : عنفوان التحدي الذي يُعطي للتُراب والارض قوة خرافية من الصعب قهرها ، ومن ثم يُعطيها أمل بإستقبالِ الربيع شهر الولادة والتفتح [٢٠] .

لقد استطاع درويش ان يجعل من الابداع فناً مزجه ب(التراب / الارض) ليصنع لنا لوحات سُريالية يُدلل بها عن حقيقة جنونه وعشقه للارض ، فهو يستحضر (الياسمين) ، ليجعل منه رمزاً فيه إضاءة تامة وفاضحة لسرهِ ، ليقول بوضوح : إنّ (الياسمين) رمزاً لأُمنا (الارض) ، ورمزاً للتُراب ، وهو يحمل عطر الارض وعبقها ، فلنسمعهُ وهو يقول :

والياسمين اسم لأُمي . باقةُ الزَّبدَ [٢١]

فـ (الزبد) هنا ليس دلالة على العبث ، بقدر ما هو دلالة على البياض والنقاء ! ثم يُحيلنا درويش الى معنى جديد يبتدعه لـ (الورد) ، وهو يُخاطب (الارض) المغتصبة ، فيقول :

الورد منفي على صدرها

والورد محروق على صدرها [٢٢]

دعوة اخبارية وغير مباشرة على تمجيد هذه الارض المغتصبة والمخضبة بالدماء وبالورد . ولكن ليس بوضعهِ – الورد – كأكاليل على الارض او على صدرها الجريح . ولكن ابدال الموت والاغتصاب بالوردِ ، دلالة على إلغاء الجروح ، وتحويلها الى حدائق من الوردِ والحمام ! فيقول :

وصار الجرح وردتنا جميعاً [٢٣]

إلاَّ أنَّ بلاغة الفعل تجعل الارض كبركان حينما يُعطيها درويش بُعداً جديداً ، يتجلى في قول درويش :

هو الآن يخرج منا

كما تخرج الارض من ليلةٍ ماطرة
وينهمر الدم منهُ
وينهمر الحبر منا [٢٤]

فدرويش يبث الروح في الدمِ ، والحياة فيه ، بحيث يصبح الدم عنصراً حياً مُتفاعلاً بوجه الحياة ، ويرسم خطوطها ، ويُشكل نسيجها ، ويكتب مذكراته عن طريق إنهمار الدم ، وهو يتكلم في ليلةٍ ماطرة ، حيث نستدل على الدم من حركتهِ وصوته ورائحته ، والارض تنتظرهُ لتحتضنه وتُشمه حينما يقول :

وتعيش عائشة
تعيش روائح الدم والندى والياسمين [٢٥]

- المحور الثالث :

(مفهوم الارض في الشعرِ الفلسطيني المعاصر):

شكلت الارض بِعدّها علامة لغوية محوراً بارزاً في الشعرِ الفلسطيني المعاصر ، حيث كان لها حضور فاعل وكثيف على إمتدادِ نتاج الشعر الفلسطيني بمراحلهِ الطويلة ، إذ تعددت دلالاتها وتنوعت بين الحقيقة والمجاز ، فضلاً عن أنَّ لفظها في بعض القصائد جاء عنواناً بارزاً ، لكون العنوان له القدرة على الاندماج بوحدةِ القصيدة (موقفاً ، ووظيفة) في الدلالة العامة والجزئية [٢٦] ، لاسيما عند الحديث عن اهم الاماكن ، وهي : (الارض) .

إنَّ دلالة الارض التي يدور حولها الشعر الفلسطيني الحديث تتمحور في اشكالٍ متنوعة ، إلاَّ أنّ اهم هذه الدلالات هي :

- (الوطن) :

وهي تستمد حركيتها من ذاتِ الشاعر للتعبير، ووسيلة لإيصال الفكرة عن طريق توظيفها بصورها المختلفة واجزائها وتفاصيلها ، فتوحي (الارض) بـ(الوطن المحتل) بيت الأُلفة والحماية والامن الذي يتمدد في نفوس هؤلاء الشعراء ، فهي شمس حياتهم التي لا تغيب ، تظل تصدح ذكراها في دواخلهم [٢٧] ، ولا بد من الإشارة الى أنّ (الارض) لم تظهر في الشعر العربي اكثر بهاءاً وعمقاً من ظهورها في نتاجِ شعراء الارض المحتلة ، ولم تعدّ

صلة الإنسان بها كصلتهِ بمكان مجرد . ولكنها الوجه الآخر للشخصية الفلسطينية ، وهي: امتداده الكياني ، وجزءه المكمل للآخر، فـ(الارض) هي : (فلسطين) بكل تفاصيلها ، هي : (الحبيبة، والوطن ، والأُم ، والهوية) [٢٨]. فقد عمدت قوات الاحتلال الصهيوني في المناطق الفلسطينية ، والتي إحتلت في العام ١٩٤٨ ، وبقي فيها بعض العرب الى إجراءات تعسفية قمعية من تسلط وقهر واضطهاد وظلم وضرائب من أجل أنّ يرحلوا عنها . ولكن بعضهم آثر البقاء فيها على الرغم من كل الاوضاع الصعبة ، وان البقاء في الارض المتحلة هو تأكيد لهوية الارض (عربية، فلسطينية ، اسلامية ، مهد الديانات) ، وهي ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، بل هي الهوية التاريخية ، والهوية الفلسطينية ، والوجود العربي مهما تكاثرت عليها قبائل الغزو كما في قصيدة (عاشق من فلسطين) :

عيونك شوكة في القلب / توجعني .... واعبدها
واحميها من الريح / واغمدها وراء الليل والاوجاع .... اغمدها
فيشعل جرحها ضوء المصابيح/ ويجعل حاضري غدها
أعز عليّ من روحي[٢٩].

وعلى الرغم من مرارة العيش ، فالشاعر يتمسك بوطنهِ وارضه ، إنَّه التوحد مع المكان الوله العشق المكاني ، والتغني به ، ومُتعة لحظات القرب منهُ . إنَّه إله في الارض يعبد (اعبدها). إنّها طفل مُدلل (احميها، واغمدها) ، فهي الحاضر وألقه ، إلاّ أنَّ درويش يعمد الى ذكر لفظها وتفاصيلها، فاسمعهُ يقول :

فلسطينية العينين والوشم / فلسطينية الإسم
فلسطينية الاحلام والهم / فلسطينية المنديل والقدمين والجسم
فلسطينية الميلاد والموت / حملتك في دفاتري القديمة / نار اشعاري
فلسطينية الكلمات والصمت / فلسطينية الصوت
وباسمك صحت في الوديان / خيول الروم اعرفها
وان يتبدل الميدان [٣٠].

الشاعر يرسم بألفاظهِ ملامح هذا الوطن ، بألفاظ صريحة وتقريرية خطابية مباشرة ، وهنا كلمة (فلسطين) بلفظها هي تحدٍ في حدِ ذاتها ، تحدٍ للوجودِ الصهيوني الموقت الراحل غدا ، وتأكيد على هوية هذا المكان ، وتكرارها ليس مجرد تكرار لفظي ، وإنّما هو استحضار وتجسيد لهذا الوطن

الممتدة جذوره (حملتك في دفاتري القديمة) ، وما زالت ؛ لانّه يعرق (خيول الروم) حتى وان تبدلت ملامحه ، و(ان يتبدل الميدان) هذا هو إصدار (الانسان / الفرد) الفلسطيني على حقهِ في هذه الارض بكل تفاصيلها من جبال وسهول وأودية ، فلسطينية الجذر ، فلن يعثر هؤلاء الاعداء ما يدل على أنّ لهم هوية او جذور كما يقول درويش :

عالم الآثار مشغول بتحليل الحجارة
إنّه يبحث عن عينة في ردم الاساطير
لكي يثبت إنّي :
عابر في الدربِ لا عينين لي !
لا حرف في سِفرِ الحضارة !
وانا ازرع اشجاري ، على مهلي
وعن حبي أُغني ! (٣٠)

الارض لزارع هذه الاشجار ، وهي تمثل الجذور ، ولمن يُغني لها ويربى تربتها ، إنَّ قراءة النص الشعري تسعى الى معرفة حركة الدوال الشعرية، فالارض تدور في افلاك دلالية عدة ، فهي بيت الألفة ، وبطاقة الهوية ،والانتماء الوطني الممتد في عمق التاريخ (٣٢).

وفي قصيدته الشهيرة "الارض" يحكي لنا درويش عن الشهيدة (خديجة الشواهنة) تلك الفتاة التي استشهدت في (٣٠) مارس من العام ١٩٧٦ ، وهو اليوم الذي عُرِفَ بـ " يوم الارض"، حيث خرجت خديجة مع الجماهير العربية لتُندد وتستنكر قرار الحكومة الاسرائيلية الصادر في يوم (١١) مارس من العام ١٩٧٦ ، والذي يقضي بمصادرة قِرابة (١٠٠) الف دونم من الاراضي العربية في (الجليل) ، وفجأة فقدت خديجة أخيها الصغير ، وظلت تبحث عنه حتى عثرت عليه . ولكن فرحة خديجة بالعثور على أخيها لم تدم طويلاً ، حيث سقطت شهيدة بعد أن اطلقت قوات الكيان الصهيوني النيران عليها (٣٣). مشهد استشهاد (خديجة) داعب اوراق (درويش) ، حيث ظل يحاورها في قصيدته " الارض" ، فكتب يقول :

أنا الارض
والارض أنت
خديجة لا تغلقي الباب
لا تدخلي في الغياب

سنطردهم من اناءِ الزهور وحبل الغسيل
سنطردهم عن حجارة هذا الطريق الطويل
سنطردهم من هواء الجليل [٣٤]

وحين اراد الشاعر سميح القاسم ان يكتب عن يوم الارض ذهب ليجلس تحت شجرة في عرابة ، وهي احدى القرى الفلسطينية التي اندلعت فيها التظاهرات يوم (٣٠) مارس، وسقط فيها اول الشهداء" خير محمد سليم" ، وكتب القاسم يقول :

يا أمنا الارض أبشري واستبشري
ما زال يحرس عرضك الابناء
لك أنّ عطشت من العروق موارد
واذا عريت من الجسوم كساء
عربية كانت
وتبقى ارضنا عربية
وليصخب السفهاء [٣٥]

وفي قصيدة (الارض من بعدي) يصور لنا القاسم مدى العلاقة بينه وبين الارض (المكان الأليف /الجذر التاريخي) الذي ينتمي إليه ، هوية الماضي والحاضر هوية العصر ، ثم يتساءل القاسم : (هل اصبح انا خارجها بعد ما كنت انا وهي امتداداً لجسد واحد ، ثم أصبح منسياً في المنافي . ولكنها تظل على الرغم من ذلك الرحم الاول الذي خرج منه ، فاسمعه يقول :

أرضي التي .... بعظامِ اجدادي / قلبتها .. جبلت اولادي
أرضي التي دللت تربتها / ورعيت طول العمر حنطتها
أرضي التي
أيصير فن تهوى ؟
واصير ذكرى ثم لا أُذكر .... [٣٦]

وفي قصيدة " توفيق زياد" يتصاعد على الخطاب المقاوم والمناهض للكيان الصهيوني ، إذ يؤكد على إستحالة محو الهوية العربية الفلسطينية ، فيقول في قصيدته :

كأننا عشرون مستحيل

في اللد والرملة والجليل
هنا ... على صدوركم باقون كالجدارِ
وفي عيونكم زوبعة من نار [٣٧]

حيث يؤكد الشاعر في هذه القصيدة على حقه في كل (التراب / الارض) الفلسطيني الممتد بأبعادها (اللد، الرملة ، الجليل ..... هنا) ، حيث يؤكد على معايشة الانسان العربي في فلسطين للكفاح والتحدي في كل مكان حتى في عيونكم ، مؤكداً على ثباتهِ كالجدرانِ وكالصبار ، وكذلك تشارك (هنا) في تأكيد تمسك الشاعر بهذا المكان الأليف على الرغم من كل الاوضاع ، وهو ينشد الاشعار ، ويتغنى بهذا الصمود والاصرار والتحدي ، ما هو إلاّ إيمان مطلق بالحياة على ارضهِ مهما كان الواقع سيئاً على حدِ قول (باشلار) : (إنّ الاماكن التي مارسنا فيها احلام اليقظة تعيد تكوين نفسها في حلم جديد) [٣٨]. فـ(الارض) هي الحياة ، ولا حياة بدونها .

ويودع الشاعر " نزيه حسون" في قصيدته عن (يوم الارض) الاحزان ، ويطلب من وطنه فلسطين أن يقف شامخاً على الرغم من القهر ، وفي الوقت نفسه لم ينس القضية الأساسية ، وهي : تحرير الارض ، كما تأثر (حسون) بالمرأة الفلسطينية التي ظلت مُتشبثة بشجرة الزيتون ، وهذه الصورة كانت ايقونة فجرت ينابيع الشعر لدى الكثير من الشعراء ممن كتبوا عن الارض ، فإسمعه يقول :

دعي الاحزان يا أمي وغذيني بعشق الارض
يزهر في شراييني
قفي اماه رغم الجراح شامخة
وردي القهر عن زرعي وزيتوني
انا ارض ، انا شجر ، انا زرع دم الزيتون
بعضاً من شراييني [٣٩] .

ويظهر توحد الانسان بـ(الأرض) ، وتوحد الارض بـ(الانسان) في ابهى صورها عندما يبذل الانسان كل ما لديه حتى روحه رخيصة من اجلها ، فهى أُمه ، هذا التوحد بين العالم الخارجي والعالم الداخلي الذي يُسميه عز الدين اسماعيل (توحد الذات والموضوع) [٤٠] . حتى تظهر الصورة الشعرية جلية وواضحة لا يمكن الفصل بينها ، كما في قصيدة (الفدائي والارض) :

كل ما لدي ، كل النبض / الحب والإيثار والعبادة

ابذله لاجلها ، للارض
مهرا ، فما اعزمنك يا
أماه إلاّ الارض :
يا ولدي ، يا غرسة / اقتلعت من ارضها الكريمة
اذهب ، فما اعز منك يا
بني إلاّ الارض ..... (٤١)

إذ تصور الشاعرة علاقة الانسان بالأرض في هذا الحوار بين الأم وابنها ، حيث تبقى الارض هي الاعز والاعلى فـ(هو) و(هي) يبذلان كل شيء من اجلها (الارض) ابذله لاجلها – فما اعز منك يا اماه إلاّ (الارض) ، وكذلك الصورة المقابلة من الأُم ، فما اعز منك يا بني إلاَّ (الارض)، هي الجذر الاساس .

وقد ترتبط (الارض) بدلالة دينية عندما تكون موطن الانبياء ، مهد السيد المسيح (عليه السلام) كما في قصيدة (رسالة الى الله) :

أرضنا
من عسل – يحكي- بها الأنهار- يحكي - / من حليب
انجبت – يحكي – كبار الانبياء / وعشقناها
ولكنا انتهينا في هوانا اشقياء / وحملنا كل الآم الصليب
يا ابانا ، كيف ترضى لبنيك البسطاء
دون ذنب – كل الآم الصليب .. (٤٢) .

فمن المعلوم : ان فلسطين هي مهد الديانة المسيحية ، حيث ولد السيد المسيح (عليه السلام) في مدينة (بيت لحم) ، وحيث عرج الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) الى السماوات العُلى من الحرم القُدسي الشريف/ المسجد الاقصى المبارك لقوله تعالى : " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ " (٤٣) . فهي مكان مقدس ، ف(الارض) تحمل دلالة دينية (انجبت- يُحكى – كبار الانبياء ، والآم الصليب) ،حيث تُشير الى السيد المسيح وعذاباته الطويلة مع بني اسرائي . ولعل اروع الصور الشعرية للارض في الشعر الفلسطيني هي قصيدة (الأرض) لمحمود درويش الذي يقول عنه (يوسف الخطيب) : ممن اختصوا في فلاحة الارض وحراثتها من شعراء الارض المحتلة اكثر من غيره ، (إلاّ

أنّ من اختص في فلاحة الارض فلاحة شعرية رائعة ومخصبة هو دون منازع (محمود درويش) ، ان هذا هو حقله ، وهو حراثه وناطوره ومُغنية . إنّه حقله بمعنى الحقل ، وليس غايته البرية الباردة الصماء ، فانّ ما يريدهُ هو ان يتوحد مع الارض) [٤٤] وكذلك تذكر(اعتدال عثمان) لدرويش قوله : (أنا لا اكون إلاّ في الارض ، وكل وجود لي خارجها ، إنّما هو ضياع وتيه نهائي . لتكن الارض داخلي تكتبني واكتبها) [٤٥] ، فهي الثورة والغضب والتمرد والتحدي والصبر والمقاومة ، لاسيما حينما ترتبط بـ(شهرِ آذار) ، شهر الخصب والولادة ، شهر الربيع والتجدد :

في شهرِ آذار ، في سنةِ الانتفاضة ، قالت لنا الارض
اسرارها الدموية ، في شهرِ آذار مرت امام
البنفسج والبندقية خمس بنات وقفن على باب
مدرسة ابتدائية ، واشتعلن مع الورد والزعتر
النهائي آذار يأتي الى الأرض من باطن الارض
يأتي ومن رقصه الفتيات البنفسج مال قليلاً
يعبر صوت البنات . العصافير مدت مناقيرها
في اتجاه النشيد وقلبي[٤٦]

يحرص الشاعر على ذكر تفاصيل المكان لاضافة واضفاء ملامح واقعية ، فخرج آذار (زمن) من باطن الارض (مكان) هو بعث للحياة بعد الموت ، أي ان الزمكان الفلسطيني قبل آذار كان ساكناً لا حركة فيه ، وهذا الحدث ، حدث الاستشهاد جعل الحياة تدب في الارض من جديد عن طريق فعل القول (قالت) ، حيث نطقت الارض باسرارها الدموية – الثورة والمقاومة – فضلاً عن ان شهر آذار الخصب والنماء ، فالأرض في هذا الشهر تستعيد قواها ، وتبعث في فعل جديد . فقد أخصبت (قالت اسرارها الدموية) ، ثم (اشتعلت مع الورد والزعتر البلدي)!

ولا بد من الاشارة الى ان هناك الفاظ تشترك مع الأرض في الدلالة عليها ، ولا سيما : (الحجر والشجر والبحر) ، فإسمعهُ :

.... واحمل ارض كنعان التي اختلف الغزاة على مقابرها
وما اختلف الرواة على الذي اختلف الغزاة عليه
من حجر سننشئ دولة العشاق [٤٧]

يؤكد الشاعر على هوية هذه الارض على مر العصور (كنعانية) التي اختلف كل الغُزاة على نسبها ، إلاَّ أنَّ الرواة اتفقوا على أنها فلسطينية الميلاد والموت ، وان كان هؤلاء الاعداء (اليهود) يريدون ان يحتلوها بالحجر ليُنشئوا دولة (الغيتو) ، فإنّ الحجر الفلسطيني اقوى قُبالة كل ظلمهم وجبروتهم ؛ لانّ الشاعر والشعب مُصر على تحرير بلدهم ، وتخليصها من براثن المعتدين ؛ لانّها دولة العشاق ، وكلهم مستعدون للدفاع عن هذا العشق الابدي .

وكما داعبت (الارض) اوراق الشعراء ، فإنّها داعبت اوراق الادباء أيضاً ، فنرى الاديب الفلسطيني الراحل (غسان كنفاني) يأخذ من قضية (الارض) محوراً أساسياً في اغلب اعماله ، ومن مقولاته الشهيرة :

(لنزرعهم . شهدائنا في رحم هذا التُراب المثخن بالنزيف ...، فدائماً هنالك موجود في الارض متسعاً لشهيد آخر) [٤٨] .

الخاتمة :

إنّ الارض هي رمز وتجسيد حي وملموس للوطن ، والذي يعمد الفلسطينيون للنضالِ والمقاومة لحمايتها وصيانتها ، ومواجهة مشاريع الاقتلاع والترحيل الترانسفيرية ، وهي تكتسب ابعاداً كثيرة في ادبنا وثقافتنا الفلسطينية المعاصرة . وقد نجح المبِدع الفلسطيني في استلهام مفهوم (الارض) بتفاصيله اليومية الدقيقة ، ما جعل (الوطن / الارض) يتحول الى معنى رائع وجميل في العقل الفلسطيني والذهن الانساني . إنّه الدفء الانساني ، والحب الفاعل والتوحد المؤثر والالتحام الصميمي للارض الحبيبة ، ومغازلة الحقول والمواسم الخضراء ، والمقاومة الشعبية الصلبة الواعية الملتزمة ، والقامة المنتصبة ، والهامة المرفوعة دفاعاً عن الارض والوطن ، والذود عن الحق والكرامة والهوية الكنعانية ، النـي حملها مجنون التراب عنواناً ليتحدث بها ويحكي عنها ويتغنى بها عن الارض المُتوقدة شوقاً للحرية .

- الهوامش :

(١) محمد القاضي ، الارض في شعر المقاومة الفلسطينية ، تونس ، ١٩٨٢، ص٢٣ ؛ وكذلك يُنظر : كريم مروة ، المقاومة ، دار الفارابي ، بيروت ،١٩٨٥.

(٢) د. زكي نجيب محمود ، مع الشعراء ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٢، ص٢٩.

(٣) المصدر نفسه ،ص٣٢؛ ويُنظر كذلك : د. عبد الحميد جيدة ، الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر ، مؤسسة نوفل ، بيروت ،١٩٨٠.

(٤) محمد القاضي ، الارض في شعر المقاومة الفلسطينية ، مصدر سبق ذكره ،ص٣٦.

(٥) يُنظر : ناجي علوش ، من قضايا التجديد والالتزام في الادب العربي ، الدار القومية ، تونس ، ١٩٧٨ ؛ وكذلك : عثمان سعدي ، دور الشعر بالجزائر في بثِ الوعي القومي ، ص٤١.

(٦) د. غالي شكري ، شعرنا الحديث الى أين ؟ دار الافاق ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص٥٨ ؛ وادب المقاومة ، دار الآفاق ، بيروت ،١٩٧٩ .

(٧) عبد الوهاب البياتي ، تجربتي الشعرية ، منشورات نزار قباني ، بيروت ،١٩٦٨ ، ص٥١.

(٨) د. زكي نجيب محمود ، مع الشعراء ، مصدر سبق ذكره ، ص٣١؛ ويُنظر : حسن توفيق ، شعر بدر شاكر السياب ، المؤسسة العربية ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص٧١.

(٩) محمد القاضي ، الارض في شعر المقاومة الفلسطينية ، ص٤٨.

(١٠)محمود درويش ، يوميات الحزن العادي ، دار العودة ؛ بيروت ، ١٩٨٤ ، ص٤٠.

(١١)شاكر النابلسي ، دراسة في شعر وفكر محمود درويش ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١ ،١٩٨٧ ، ص٢٥٢.

(١٢)محمود درويش ، عائد الى حيفا ، أُحبك أو لا أُحبك ، ١٩٧٠، ص٤٠٤.

(١٣)محمود درويش ، أُغنيات حب الى افريقيا ، أُحبك أو لا أُحبك ، ١٩٧٧،ص٤٣٤.

(١٤)المصدر نفسه .

(١٥)محمود درويش ، موت آخر وأُحبك ، محاولة رقم ٧ ،١٩٧٣، ص٥١٥ .

(١٦)محمود درويش ،تلك صورتها وهذا انتحار العاشق ، ١٩٧٥، ص٥٦٤.

(١٧)إعتدال عثمان ، نحو قراءة إبداعية لأرض محمود درويش ، مجلة فصول ، القاهرة ،١٩٤٨، ؛ ويُنظر كذلك : رجاء النقاش ، محمود درويش ، الارض المحتلة ، المؤسسة العربية ، بيروت ، ١٩٧٢.

(١٨)محمود درويش ، اعراس ، ١٩٧٧، ص٦١٩.

(١٩)المصدر نفسه ، ص٦٢٤.

(٢٠)نفسه .

(٢١)محمود درويش ، تلك صورتها وهذا إنتحار العاشق ، ص٥٦٧.

(٢٢)محمود درويش ، حبيبتي تنهض من نومها ،ص٣١٥.

(٢٣)محمود درويش ، محاولة رقم ٧، ص٤٧٧.

(٢٤)محمود درويش ، الديوان ، أُحبك أو لا أُحبك ، ص٤٠٢.

(٢٥)المصدر نفسه ، ص٤١٧.

(٢٦)يُنظر : بُنية العنوان في قصيدة السياب : الموقع والدلالات ، محمود محمود عبد الوهاب ، الاقلام ، العدد (٦) ،١٩٩٦ ، ص١٩.

(٢٧)يُنظر : جريدة البيان ،١٩٨٦/٥/٢٠ ؛ وكذلك : مجلة الكرمل ، العدد (١٠) ، ١٩٨٣؛ وريتا عوض ، اسطورة الموت والانبعاث ، المؤسسة العربية ، بيروت ،١٩٧٩.

(٢٨)يُنظر : مختارات من الشعر الفلسطيني في الارض المحتلة ، منظمة التحرير الفلسطينية ، دار الاعلام والثقافة ،ط١، دمشق ،١٩٨٤.

(٢٩)ديوان محمود درويش ، ص٤١.

(٣٠)المصدر نفسه ،ص٤٤.

(٣١)نفسه ، ص١٧.

(٣٢)عباس خضر ،أدب المقاومة ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ص٨١.

(٣٣)في ذكرى يوم الارض ، صورة المرأة الفلسطينية المُتشبثة بشجرة الزيتون ، vwm. lrdi.ipq الاحد ، ٢٠١٢.

(٣٤)محمود درويش ، الديوان ، ص٣١٦- ٣١٧.

(٣٥)في ذكرى الارض ، مصدر سبق ذكره .

(٣٦)سميح القاسم ، الديوان ، ص٤٨٤.

(٣٧)توفيق زياد ، الديوان ، ص١٩٧.

(٣٨)يُنظر : باشلار : جماليات المكان ، ص٤٤.

(٣٩)في ذكرى الارض ، مصدر سبق ذكره .

(٤٠)يُنظر : الشعر العربي المعاصر ، ص١٩٥.

(٤١)فدوى طوقان ، الديوان ، ص٥٠٦-٥٠٩ ، وكذلك يُنظر : شاكر النابلسي ، فدوى تشبيك مع الشعر ، الدار السعودية ، جدة ، ١٩٨٥.

(٤٢)سميح القاسم ، الديوان ، ص٦٤-٦٥.

(٤٣)سورة الاسراء ، الآية (١).

(٤٤)يُنظر : مقدمة ديوان المحتل ، يوسف الخطيب ، ص٤٥.

(٤٥)اعتدال عثمان ، إضاءة النص ، ص١١٥.

(٤٦)محمود درويش ، الديوان ، ص٣٦١.

(٤٧)المصدر نفسة ، ص٤٣٢.

(٤٨)غسان كنفاني ، في الادب الصهيوني ، مؤسسة الابحاث العربية ، بيروت ، ١٩٨٢، ص٢١.

The concept of the ground in the Palestinian heritage contemporary (-a model poets)

Abstract

There is a dialectical relationship and a close link between the rights of the Palestinian and the ground up to the degree of sanctification are any land code survival and existence, steadfastness and unity and the source of longing and nostalgia for the homeless and expatriates in the Diaspora and exile forced a gain many dimensions in Arabic literature to meet the projects uprooting and deportation and carried by Mahmoud Darwish Anon to speak out and tells it and sing its praises from the earth, longing for freedom and a fraction of the restrictions of the occupation.